التّعليل الصّوتيّ للقراءات القرآنيّة عند ابن جنيّ (ت ٣٩٢هـ) في المحتسب

الأستاذ المساعد الدكتور سعيد إبراهيم صيهود

قسم العلوم النظرية/كلية التربية الرياضية /جامعة البصرة

الملخص:-

تتعدّد التّعليلات اللّغويّة عند ابن جنيّ تعدّدًا واضحًا في كتبه جميعها ولا سيّما المحتسب، ولعلّ أكثرها التعليلات الصّوتيّة المتعلّقة بالقراءات القرآنيّة الشّاذّة وهو محور بحثنا الذي يقوم على بيان أسباب هذه القراءات، وأبرز الظواهر الصّوتيّة التي علّلها ابن جنيّ الإدغام والإبدال والإشباع وتسكين المتحرّك وتحريك السّاكن والقلب والتخفيف والإتباع أوِ المجاورة والتقاء السّاكنين ومناسبة الأصوات للمعاني التي تدل عليها والإمالة، وقد ذكر بعضها ابن جنيّ في كتبه الأخرى، ومنها ما عدّه لغةً من لغات العرب، كما بين البحث موقف ابن جنيّ من هذه القراءات ورأيه في رفضها أو قبولها لمطابقتها وجهًا من وجوه اللّغة أو عدم ذلك.

كلمات مفتاحية: ابن جني،القراءات القرآنية ،المحتسب،التعليل الصوتي.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢١/٠٩/٠٥   **تاريخ القبول:** ٢٠٢١/١١/٠٤

The Phonetic Interpretation of the Qur'anic Readings According to Ibn Jinni (d. 392 AH) in al-Muhtasib

Assist. Prof. Dr. Said Ibrahim Saihoud
Department of Theoretical Sciences/College of Physical Education/University of Basrah

Abstract:

There are many linguistic explanations for Ibn Jinni in all his books, especially Al-Muhtasib, perhaps the most vocal explanation are related to abnormal Quranic readings, which is the focus of our research, which is based on explaining the reason for these readings, the most prominent phonetic phenomena that Ibn Jinni justified are adulation, substitution, saturation, sedation of the moving, moving the consonant, inversion, mitigation, following or adjacent, the meeting of the two dwellers, the matching of sounds to the meaning indicated by them, and tilting.

Some of them were mentioned by Ibn Jinni in his other books, including what he considered one of the languages of the Arabs. As the research shows Ibn Jinni's position on these readings and his opinion on rejecting or accepting them because they conform to one aspect of the language or not.

Keywords: Ibn Jinni, Al-Quantic readings, Al-Muhtasib, audio explanation

Received:04/10/2021   **Accepted: 07/11/2021**

المقدمة:-

وبعد، فهذا البحث يتناول التعليلات الصّوتيّة عند ابن جنيّ في كتابه (المحتسب)، وابن جنيّ –كما هو معروفٌ- أحد علماء اللّغة البارزين، ولعلّه من أكثر علماء العربيّة عنايةً بالدراسات الصّوتيّة، وكتابه هذا دليلٌ واضح على عنايته بتفسير الظواهر الصّوتية الواردة في القراءات القرآنيّة الشّاذة، وهو وإن كان شرحًا لكتاب السّبعة لابن مجاهد إلّا أنّه -كعادة ابن جنيّ في كتبه- استطرد في التّعليل وربّما علّل مسألةً لم تكن موجودةً في القراءات، مجتهدًا في الدّفاع عنها وإن على وجه من وجوه اللّغة مهما كان قليلًا أو شاذا، وقد بين ابن جنيّ سبب عنايته بالشّاذ منّ القراءات بأنّه ضاربٌ في الرّواية بجِرانه وقوّته، وأمر الله بتقبّله والعمل بموجبه، فضلًا عن أنّ أحدًا لم يؤلف في الشّاذ منَ القراءات والاحتجاج له .

لقد حاول البحث دراسة جهود ابن جنيّ في تعليل الظّواهر الصّوتيّة في القراءات الشّاذة ممّا تعدّدت أسبابه ودواعيه، واستعانته في ذلك ببعض اللّهجات العربيّة السّائدة عند القبائل العربيّة والشّواهد الشعريّة، وآراء من سبقه من العلماء وموقفه منها تأييدًا أو مخالفةً، ولعلّ أكثر الظّواهر الصّوتيّة التي علّلها ابن جنيّ ما يأتي:

١- الإدغام:

يعزو ابن جنيّ ظاهرة الإدغام إلى تقارب الأصوات مخرجًا وصفةً، والغلبة في ذلك لأقوى الأصوات، فيدغم الأول في الثاني ويأخذ صفته، وتتحقّق قوّة الصّوت بصفات الجهارة والشّدة والتكرار والتفخيم والغنة(١).

والإدغام بين الأصوات المتقاربة في المخرج من أكثر أنواع الإدغام وقوعًا وأوسعها خلافًا بين القرّاء واللّغويين(٢).

وصور الإدغام التي علّلها ابن جنيّ في القراءات القرآنيّة هي:

التّاء في الطّاء:

وذلك في قراءة قوله تعالى: (يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُم)(٣) بفتح الياء والخاء وتشديد الطّاء (يَخَطَّفُ) وأصله يختطف فأدغم التّاء في الطّاء ؛ وقد علّل ابن جنيّ ذلك بأنهما من مخرجٍ واحد، ولأنَّ التاء مهموسة والطاء مجهورة (والمجهور أقوى صوتًا منَ المهموس، ومتى كان الإدغام يُقوّي الحرف المدغمَ حسن ذلك؛ وعلّته أنّ الحرف إذا أدغم خفيَ فضعفَ، فإذا أدغمَ في حرفٍ أقوى منه استحال لفظ المدغم إلى لفظ المدغم فيه فقوي لقوّته، فكان في ذلك تداركٌ وتلافٍ لما جُنِيَ على الحرف المدغمِ فأسكن التّاء لإدغامها والخاء قبلها ساكنة، فنقلت الحركة إليها، وقلبت التاء طاءً وأُدغمت في الطّاء فصارت يَخَطَّفُ)(٤). ومردّ الأمر عنده كما هو واضح تقارب الأصوات في المخرج وصفة الصّوت قوّة وضعفًا، فالصّوت القويّ هو الذي يكون له الأولويّة والبقاء.

ومنه كذلك ما علّل به قراءة قوله تعالى: (يَا أيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)(٥) قرئ بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطّاء (يَحِطِّمَنَّكُم) ، والأصل عنده يَحتَطِمنَّكُم بالتاء على (يفتعل) من الحطم أي الكسر؛ فأدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجهما، ثمّ أسكنت وأبدلت طاءً وأدغمت في الطاء بعدها، ونقلت

فتحة التاء إلى الحاء[٦]. والتّاء قريبة منَ الطّاء في المخرج إلّا أنّ الطاء أقوى في صفة الجهارة فأدغمت فيها التّاء لذلك.

الضّاد في الطّاء:

قرئ بها قوله تعالى: (..ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ)[٧] بإدغام الضّاد في الطاء (أطَّرُّهُ)، وقد أنكر ابن جنيّ هذه القراءة فقال: (هذه لغةٌ مرذولةٌ، أعني إدغام الضّاد في الطّاء؛ وذلك لما فيها منَ الامتداد والفشوّ، فإنّها منَ الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها، ولا تدغم هي فيما يجاورها وهي الشّين والضّاد والرّاء والفاء والميم، ويجمعها في اللّفظ قولُهم: ضُمَّ شَفر، وقد أخرج بعضُهم الضّاد من ذلك وجمعها في قولهم: مشفر، قال: لأنّه قد حكيَ إدغام الضّاد في الطّاء في قولهم في اضطجع: اطّجع)[٨]. وعلّة ذلك كما يبدو قوة الضّاد في الجهر وهو مبدأ ابن جنيّ في الإدغام ولكنّ إدغام الطّاء في الضّد قد يوهم معنىً آخرَ وهو الضرّ.

التّاء في الدّال:

ورد هذا في قراءة قوله تعالى: (..بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)[٩] قرئ: مُرُدِّفين، وأصله: مرتَدِفين منَ الرِّدف، على (افتعلَ) فأدغمتِ التّاء في الدّال، فأسكنت وأدغمت في الدّال، فلمّا التقى ساكنان الرّاء والدال حرّكت الرّاء[١٠]. وقد أدغِما لتقاربهما في المخرج والصّفة، ويبدو أنّ التّاء أكثر الأصوات التي يُدغم بها غيرها منَ الأصوات.

النّون في الظّاء:

أنكر ابن جنيّ هذا الإدغام وعدّه غير معروف في اللّغة، وقد ورد في قراءة قوله تعالى: (لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)[١١] فقد قرئ (لِنَظُّرَ) بنون واحدة، ورجح أن تكون النون مخفاة فظنّ القرّاء أنّها مدغمة على عادتهم في كثير من الإدغام، والسبب في ذلك أنّها لا تدغم إلّا في ستة أصوات تجمعها كلمة يرملون[١٢]. ولعلّ السّبب في ذلك ما جرى من عادة العرب في حذفها أحد المتماثلين واستثقالهم ذلك.

الصّاد في الطّاء:

وقد علّل ابن جنيّ هذا الإدغام في قراءة قوله تعالى: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا)[١٣] (يَصَّلِحَا) بقوّة الصّاد لما فيها من الصّفير، قال: (أراد يصطلحا، أي يفتعلا فآثر الإدغام فأبدل الطّاء صادًا ثمّ أدغم فيها الصّاد التي هي فاء فصارت يصّلحا، ولم يجز أن تبدل الصّاد طاءً لما فيها من امتداد الصّفير، ألا ترى أنَّ كلَّ واحدٍ منَ الطّاء وأُختيها يُدغمنَ في الصّاد وأُختيها، ولا يدغم واحدة منهنّ في واحدةٍ منهنّ؟ فلذلك لم يجز: إلّا أنْ يَطَّلِحَا، وجاز: يَصَّلِحَا)[١٤] فمدار الأمر عنده قوة الصّوت من حيث صفاته من الجهر والشّدة والصّفير فيدغم ما قبله فيه وليس العكس إلّا أن يكون أقوى منه في الصّفة.

الثّاء في التاء:

تدغم الثّاء في التاء التي تبدل في الوقف هاءً في قراءة (ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُم)[١٥] لقرب الثّاء منَ التاء في المخرج، فيقال: ابعثْ تِّلك، وأغِثْ تِّلك، وجوّز الإدغام وقوع الألف قبلها ساكنًا، كما تقول: شابَّة ودابّة، وهذا الإدغام لم يقرأ به إلّا ابنُ محيصن[١٦]. وأدغمت الثّاء في التّاء كذلك لقوّة صفة الجهر في الأخيرة.

٢- الإبدال:

يتمثّل الإبدال عند ابن جنيّ وغيره منّ اللّغويين بتقارب الأصوات في المخرج فيحلّ أحدُهما محلّ الآخر، فابن جنيّ يعبّر عن تلك الأصوات بأنّها أخوات، فالشِّين أُخت الجيم، والنّون أُخت اللّام، والعين أُخت الهمزة، والطّاء أُخت التّاء، والواو أُخت الياء(١٧). وقد أشار إلى صور كثيرة منَ الإبدال بين تلك الأصوات، وهي:

إبدال الهمزة:

لعلّ الهمزة أكثر الأصوات عرضةً للتغيير إبدالًا وإدغامًا وتخفيفًا وغير ذلك, وقد علّل سيبويه ذلك بقوله: (واعلمْ أنَّ الهمزةَ إنّما فعل بها هذا من لَم يُخفّفها؛ لأنّه بعُد مخرجُها، ولأنّها نَبْرةٌ في الصَّدر تُخْرَجُ باجتِهادٍ، وهي أبعدُ الحروف مخرجًا، فثقُل عليهم ذلك لأنّه كالتهوّع)(١٨)، وهي عند المحدثين صوتٌ شديدٌ ينتج من انحباس الهواء عند فتحة المزمار ثمّ انفراجه فجأةً وهي عملية تحتاج إلى جهد عضليّ يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، فهي لذلك أشقّ الأصوات ما جعل لها أحكامًا مختلفةً(١٩). فمن إبدالها واوًا ما ألح إليه ابنُ جنيّ في قراءة قوله تعالى: (لَرَوُوفٌ)(٢٠) وقد أنكر هذه القراءة معلّلًا ذلك بقوله: (ينبغي أن تكون الهمزة فيه مخفّفة، فلمّا أخفاها التّخفيف ظُنّت واوًا للطف هذا الموضع أن تضبطه القرّاء؛ وذلك أنّا لا نعرف في غير هذه اللّفظة إلّا الهمز، يقال: رؤف به، ورأف به, ورئف به، ولم نسمع فيه راف ولا رُفتُ، والهمزة إذا خفِّفت في نحو هذا لم تبدل، وإنّما تُخفى)(٢١). وكذا علّل قراءة قوله تعالى: (وَلَا يَوَودُهُ حِفظُهُمَا)(٢٢) منتقدًا قول ابن مجاهد إنّها بلا همز، قال: (خلّط ابن مجاهد في هذا التفسير تخليطًا ظاهرًا غير لائقٍ بمن يعتدّ إمامًا في روايته وإن كان مضعوفًا في فقاهته، وذلك أنّ قوله (يَؤودُهُ) لك فيه التحقيق والتخفيف، فمن حقّق أخلصها همزةً، قال يَؤوده كيعوده، ومن خفّفَ جعل الهمزة بين بين؛ أي بين الهمزة والواو، لأنّها مضمومة، فجرى مجرى قولك في تخفيف لؤم: لوُم، وفي مؤونة: موُونة، ولا يخلصها واوًا لأنّها مضمومة)(٢٣)، فهذا عنده منّ التخفيف وليس من الإبدال، لكنّ الظاهر أنّه إبدال لخفاء الهمزة وتحولّها إلى واو كما تدلّ عليه الأمثلة التي استدلّ بها.

ومن ذلك إبدال الهمزة ياءً في قراءة قوله تعالى: (أنْبِيهِم)(٢٤) على وزن أعْطِهِم، كما تقول: أنْبَيْتُ، وهو ضعيفٌ في اللّغة؛ لأنّه ليس تخفيفًا وإنّما بدل، والبدل لا يجوز إلّا في الضّرورة الشّعريّة(٢٥).

أمّا حذف الهمزة فقد أفاض فيه ابن جنيّ وبين علله في كثير منَ المواطن من نحو قراءة قوله تعالى: (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أنْ تَقَعَ عَلَّرضِ)(٢٦) أي: على الأرض فحذف الهمزة تخفيفًا وألقى حركتها على اللّام وهي ساكنة، فصارت عَلَلَرض، فاجتمعت لامان متحرّكتان بالفتح وهو مكروه فسكّنتِ اللام الأولى في الثانية فصارت عَلَّرْض(٢٧).

ومنه حذف الهمزة منَ (المَرْء) في قراءة قوله تعالى: (بَيْنَ المَرِ وَزَوْجِهِ)(٢٨) بفتح الميم وكسر الرّاء (من غير همز..وذلك أنّه على التّخفيف القياسيّ، كقولك في الخبءِ: هذا الخبُ، ورأيت الخبَ ومررت بالخبِ، تحذف الهمزةَ وتلقى حركتها على الباء قبلها، وتقول في الجُزءِ: هذا الجُزُ، ورأيت الجُزَ)(٢٩). ويلحظ أنّ العلة في ذلك كله عند ابن جنيّ طلب الخفة والسّهولة في النطق.

ويلاحظ أنّ ابن جنيّ ينتقد بعض القراءات ويسم حذف الهمزة فيها بالاعتباطية والتعجرف كما في قراءة قوله تعالى: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إثْمَ عَلَيْهِ)(٣٠) قرئ (فَلَثْمَ) بحذف الهمزة للتخفيف، والألف لالتقاء السّاكنين،

قال: (وقد مرّ بنا من حذف الهمزة اعتباطًا وتعجرفًا من نحو هذا أشياء كثيرةٌ، من ذلك قراءة ابن كثير (إِنَّهَا لَحْدَى الكُبَر)[٣١] فهذا في الحذف كقوله (فَلَثْمَ عَلَيْهِ) إلّا أنّ بينهما من حيث أذكر فرقًا، وذلك أنّ قوله: (لَحْدَى الكُبَر) إنّمَا فيه حذف الهمزة لا غير، وقوله (فَلَثْمَ عليه) أصلُه فلا إثمَ عليه فلمّا حذف الهمزة تخفيفًا -وإن لم يكن قياسًا- التقت الألف مع ثاء إثم وهي ساكنةُ، فحذفت الألف من لا لالتقاء السّاكنين)[٣٢]. فعلّة رفضه هذه القراءة يرجع إلى أنّ فيها حذفين الألف والهمزة، وهو اختصار للمختصر.

ولعلّ من هذا ما خطأ به ابن جنيّ بعض القراءات القرآنيّة المتعلّقة بهمز غير المهموز كقراءة قوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُؤَاتِ الشَّيْطَانِ)[٣٣] بهمز خطوات، وهو عنده مردود؛ لأنه مأخوذ من خطوت وليس من أخطأت، فهو ممّا همزته العرب ولا نصيب له منَ الهمز كما قالوا: حلأت السّويق ورثأت روجي، والذئب يستنشئ، والحمل على هذا ضعيف، ثمّ برّر لذلك بأنّه لمّا كان من فعل الشّيطان فالغالب عليه الخطأ[٣٤]. فالجامع بينهما كما يرى ابن جنيّ واحد وهو الخطأ، سواءً كان من الخطوة أو منَ الخطأ.

وقد يؤدّي همز غير المهموز عند ابن جنيّ معنى مغايرًا كالفرق بين رَبتْ وربَأتْ في قراءة قوله تعالى: (اهْتَزَّتْ وَرَبَأتْ)[٣٥] فالأول من ربَا يربُو إذا نما وزاد وهو حال الأرض إذا ربت، والثاني من ربأت القوم إذا أشرفت على مكان عالٍ، وفيه شخوصٌ وانتصابٌ، وليس فيه دلالةٌ على النماء والوفور كما في الأول، إلّا أنّ فيه كذلك إفراطًا في الرّبوّ، ووصف الأرض بالعلوّ دلالة الزيادة في جميع الجهات[٣٦]. فهو وإن حاول أن يفرّق بين اللّفظين إلّا أنّ بينهما تقاربًا في المعنى لما يقتضيه اشتقاقهما من مادّة واحدة.

ومنَ الهمز ما علّل به ابن جنيّ قراءة قوله تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُؤسَى فَارِغًا)[٣٧] بهمز موسى، قال: (وفيه صنعةٌ تصريفيّة؛ وذلك أنّ السّاكنَ إذا جاور المتحرّك فكثيرًا ما تقدّر العرب أنّ تلك الحركة كأنّها في السّاكن، فكأنّ ضمة موسى في الواو، والواو إذا انضمت ضمًّا لازمًا فهمزها جائزٌ)[٣٨] فما سهّل الهمز هنا ضمّة الميم زيادة على وقوع الواو ساكنةً بعدها.

إبدال الدّال ذالًا:

رجّح ابنُ جنيّ أن يكون تركيب (ش رذ) في قراءة قوله تعالى: (فَشَرِّذْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ)[٣٩] من إبدال الدال ذالًا، لأنه غير موجود في اللّغة، كما قالوا: لحمٌ خرادل وخراذل، وإنّما أبدل لأنّ الدال قريبٌ منَ الذّال في الصفة وهي الجهر[٤٠]. واللّغويون لم يذكروا هذه المادة بالذّال، وكذا فسّره أبو حيان، قال: (ولم تحفظ هذه المادة في لغة العرب، فقيل: الذال بدل منَ الدال كما قالوا لحم خراديل وخراذيل)[٤١]، وحاول الزمخشريّ تعليل القراءة فذكر أنّ الشّرذ مقلوب الشّذر بمعنى التفرقة، من قولهم: تفرّقوا شذر مذر، ومنه الشّذر وهو المعدن الملتقط لتفرّقه[٤٢]. والظاهر أنّه على البدل؛ لأنّ عليه أغلب المفسّرين واللّغويين، ولم يذكره أصحاب المعاجم.

إبدال اللّام ياءً:

وقد ورد هذا في قراءة قوله تعالى: (إِيْلًا وَلَا ذِمَّةً)[٤٣] بإبدال اللّام ياءً، والأصل إلًّا، والسبب في ذلك كما يذكر ابن جنيّ ثقل الإدغام مضافًا إلى ذلك ثقل الهمزة وكسرتها، وقد جاء نحو هذا دينار ودنانير وقيراط وقراريط، وهذا جاء مع الفتحة استثقالًا للتضعيف، كما قلبوا اللام الثانية ياءً في نحو: أمللتُ فقالوا: أمليتُ[٤٤].

إبدال الثّاء فاءً:

هذا الإبدال من لغات العرب كما يذكر ابن جنيّ؛ فالجدث (هو القبر بلغة أهل الحجاز، والجدف بالفاء لبني تميم، ولم يقولوا: أجدفتُ، فهذا يريك أنّ الفاء في جدف بدلٌ منَ الثاء في جدث، ألا ترى الثاء أذهب في التّصريف من الفاء؟ وقد يجوز أن يكونا أصلين، إلّا أنّ أحدهما أوسع تصرّفًا من صاحبه، كما قالوا: وَكّدتُ عهده وأكّدته، إلّا أنّ الواو أوسع تصرّفًا منَ الهمزة)[٤٥]. وبذلك فسّره أبو حيّان؛ فلغة الحجاز الثّاء، يقولون: المغثور وأصلُه المغفور[٤٦].

إبدال الفاء ثاءً:

وهو عكس الإبدال السّابق؛ فالصّوتان يُبدل أحدُهما منَ الآخر، وقد ورد ذلك في قراءة قوله تعالى: (وَفُومِهَا)[٤٧] قرئ: (وَثُومِهَا) بإبدال الفاء ثاءً؛ وعلّل ابن جنيّ ذلك بأنّهما بمعنًى واحد، والثّاء عنده هي الأصلُ؛ لسعة تصرّفها فقالوا: جدث وجدف، وقام زيدٌ ثمّ عمرو و فُمَّ عمرو، ولم يقولوا: أجداف، وكذلك كثرة ثُمَّ وقلة فُمَّ[٤٨].وذكر الفرّاء أنّ الفوم لغةٌ قديمةٌ معناها الحنطة والخبز، ومنه قولُهم: فوِّموا لنا أيِ اختبزوا ، وهو أشبه المعنيين بالصّواب؛ لأنّه يشاكل العدس والبصل وغيره[٤٩]. ونجد ابن جنيّ يخالف رأيه السّابق في أنّ اللّفظين بمعنىً واحد، فيذكر أنّ بعض اللّغويين يرى أنّ الفوم بمعنى الثوم فالفاء بدل من الثاء، ويرى أنّ الصّواب عنده كما ينقل عنه ابن منظور هو أنّ الفوم الحنطة، لقولهم: فوّمتُ الخبز واختبزته[٥٠]. وهذا مناقضٌ لرأيه الذي ذكرناه في البدء .

إبدال السّين صادًا:

يتقارب هذان الصَّوتان في المخرج فيبدل أحدهما منَ الآخر، والأصل عند ابن جنيّ فيهما السّين، كما في قراءة قوله تعالى: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[٥١] قرئ بالصّاد والسّين، أبدلت السّين صادًا لوقوع الغين بعدها، يقولون: سالِغ وصالِغ، وسالخ وصالخ، وسقر وصقر، وحروف الاستعلاء تجذب السّين إلى تعاليها[٥٢].

ومنه قوله تعالى: (وَالنَخْلَ بَاسِقَاتٍ)[٥٣] و (بَاصِقَاتٍ)، قال ابن جنيّ: (الأصل السّين، وإنّما الصّاد بدل منها؛ لاستعلاء القاف، فأبدلت السّين صادًا لتقربَ منَ القاف؛ لما في الصّاد منَ الاستعلاء)[٥٤]. وكذا علّل ابن مجاهد الإبدال هنا بأنّ السّين هي الأصل ولكنّها كُتبت بالصّاد ليقرّبوها منّ الطّاء لما فيها منّ التصعّد في الحنك، والسّين من حروف الصّفير المهموسة، فيستعلي اللّسان وينخفض في كلمة واحدة وهو صعبٌ عليهم فأبدلوها صادًا ليبقى اللّسان في وضع واحد متصعّدًا في الحنك، فهي مؤاخية للطّاء في الإطباق ومشابهة للسّين في الصفير[٥٥]. على أنّ الدراسات الصّوتية الحديثة تنكر أن تكون السّين هي الأصل، وتفسّر ذلك من باب التطور الصّوتيّ، بدليل ورودها في القرآن الكريم بالصّاد، وهو الأصل ثمّ تطورت حتى شاع نطقها بالسّين[٥٦]. وهو خلاف لما رآه ابن جنيّ من أنّ السّين هي الأصل لا الصاد.

ومن طريف ذلك ما رواه ابن جنيّ من أنّ رجلين منَ العرب اختلفا في السّقْر، فقال أحدهما بالصّاد والآخر بالسّين، فتراضيا إلى أول من يقدم عليهما، فإذا براكب فسألاه فقال: ليس كما قلتما، إنّما هو الزّقْر، وسبب هذا تقارب الحروف، فالسّين مهموسة والقاف مجهورة فأبدلت زايًا وهي مجهورة، وكلّهنّ أخوات كما يعبر ابن

جنيّ[٥٧]. ويقيد ابن منظور الأصوات التي تبدل عندها السّين صادًا إذا جاء بعدها طاء أو قاف أو عين أو خاء (وذلك أنّ الطاء حرفٌ تضع فيه حنكك فينطبق به الصّوت، فقلبت السّين صادًا صورتها صورة الطّاء، واستخفوها ليكون المخرج واحدَا كما استخفّوا الإدغام)[٥٨].

إبدال الياء ألفًا:

يعزو ابن جنيّ هذا الإبدال إلى قانون الخفة والثقل، ففي قوله تعالى: (يَا حَسْرَتَا)[٥٩] قرئت بإبدال الياء ألفًا، أي حسرتي، هروبًا من ثقل الياء إلى خفة الألف، فتقول: يا غُلامَا ويَا صاحبَا[٦٠]. وجعل الفراء هذا عامّا عند العرب في الاستغاثة، فهم يحوّلون الياء إلى ألف في كلّ كلام يراد به الاستغاثة، فيكون بمعنى الدعاء، وربّما أدخلوا الهاء بعد الألف[٦١].

ويبدو أنّ اللّغويين متّفقون على هذا الحذف في موضع النداء والاستغاثة من أجل التخفيف، وبهذا فسّر ابن جنيّ قراءة قوله تعالى: (يَاوَيْلَتَا)[٦٢] فذهب إلى أنّ أصله يا ويلتي، أبدلت الياء ألفًا في النداء، وهو موضع تخفيف[٦٣].

إبدال الحاء عينًا:

تُبدل الحاء عند ابن جنيّ عينًا لتقاربهما في المخرج، وقد قرئ بهما قوله تعالى: (حَتَىّ حِين)[٦٤] بالعين، وهو جائز وليس بخطأ، إلّا أنّ الأخذ يكون بالأكثر استعمالًا، فهم يقولون: بُحثر ما في القبور، أي بُعثر، وضبعتِ الخيل، أي ضبحت[٦٥]. وقد سهّل هذا الإبدال في الدراسات الصّوتيّة الحديثة أنّ الصّوتين منَ الأصوات الحلقيّة، فالحاء صوتٌ مهموسٌ يناظر العين المجهور (فمخرجهما واحدٌ ولا فرقَ بينهما إلّا في أنَّ الحاء صوتٌ مهموس نظيره المجهور هو العين).[٦٦] وقد فُسِّر هذا الإبدال على أنّه من لهجات العرب وسُمّيَ بفحفحة هذيل، فيقولون: اللّعم الأعمر أعسن منَ اللّعم الأبيض، أي، اللّحم الأحمر أحسن منَ اللّحم الأبيض، وقد أنكر أحد الدّارسين نسبة هذه اللّهجة إلى هذيل انطلاقًا من تسميتها، فالحرف الثاني هو المقلوب إليه (وكان مقتضى هذا أن يكون معنى الفحفحة قلب العين إلى الحاء لا العكس، فلو أنّ هذه الظاهرة وصفت لنا على أنّها قلب العين إلى الحاء لأمكن القول إنّ قبيلة هذيل المتأثرة ببيئة حضريّة قد قلبت صوتًا مجهورًا إلى نظيره المهموس وهو الحاء)[٦٧].

إبدال الهاء ياءً:

الأصل في اسم الإشارة (هذه) عند ابن جنيّ الياء والهاء بدل منها، قال في تعليل قراءة قوله تعالى: (وَلَا تقْرَبَا هذِهِ الشّجَرَةَ)[٦٨] (هذِي) بالياء: (هذا هو الأصل في هذه الكلمة، وإنّما الهاءُ في (ذه) بدل منّ الياء في (ذي) يدلّ على الياء الأصل قولهم في المذكّر: ذا، فالألف في ذا بدل منَ الياء في ذي)[٦٩]. ولعلّ ما سهّل الإبدال كسرة الذال لقربها منَ الياء، فأصل الكسرة ياء وهي من جنسها، فإذا أشبعتِ الكسرة أصبحت ياءً.

إبدال الواو همزةً:

وقد قرئ على ذلك قوله تعالى: (ثُمَّ استخرجها مِنْ وِعَاءِ أخِيهِ)[٧٠] بإبدال الواو همزةً (إعَاء)، كما قالوا في وِسادة: إسادة، وفي وِجاح: إيجاح وهو الستر، وفي وجوه: أوجوه، وفي وُعِدَ: أُعِدَ، وهمز مضموم الواو -كما يرى

ابن جنيّ- أقيس منَ المكسور[٧١]. وقد علّل سيبويه هذا الإبدال بكراهة الواو لثقلها قياسًا بالهمزة، (وإنّما كرهوا الواو حيث صارت فيها ضمّةٌ كما يكرهون الواوين فيهمزون...فأرادوا أن يضعوا مكانها حرفًا أجلدَ منها، ولمّا كانوا يبدلونها وهي مفتوحة في مثل: وَنَاة وأناة، كانوا في هذا أجدرَ أن يُبدلوا حيث دخله ما يستثقلون فصار البدل فيه مطّردًا حيث كان البدلُ يدخلُ فيما هو أخفُّ منه)[٧٢]. وتعليل كراهة الواو الثقيل إلى صوت أقلّ ثقلًا منه فيه نظر؛ ولا سيّما أنّ الحرف المبدل همزةٌ وهو أكثر الأصوات تحوّلًا وتبدّلًا ، والواو لم يتعرّض لما تعرّض له صوت الهمزة، فهو ليس أخفَّ منه بل هو أثقل منه.

إبدال التّاء هاءً:

أجاز ابن جنيّ هذا الإبدال لما بين التّاء والهاء من تقارب في الصّفة وهي أنّ كليهما صوتٌ مهموسٌ، وقد ورد في قوله تعالى: (أنْ يأتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ)[٧٣] بإبدال التّاء هاءً (التّابوه) ورجح أن يكون من أصلين: تَ بَ ت، وتَ بَ هَ، وهما كذلك من حروف الزيادة، وحسّن هذا الإبدال أنّهم أبدلوا التاء هاءً في الوقف، فقالوا: حمزه، وطلحه، وجالسه، فكان ذلك عنده مطّردًا منقادًا، ويذكر علّةً أخرى وهي أنّ بني عُقيل تقول: الفراه في الفرات وقفًا ووصلًا، وذلك أنّ التاء في الفرات تشبه في اللّفظ تاء فتاة وحصاة فأبدل أحدهما منّ الآخر ثمّ جرى ذلك في الوصل لما شاع ذلك في الوقف[٧٤].

٣- الإمالة:

لم يذكر ابن جنيّ في كتابه (المحتسب) من أسباب الإمالة إلّا أنّها ضربٌ منَ التّصريف في الأفعال ، والأفعال كثيرة التصرف وله وضعت، ففي قوله تعالى: (مَا زَكَا)[٧٥] قرئ بإمالة الألف؛ لأنّه فعل، ولو كان اسمًا لم تحسن إمالته، لذلك لم يميلوا: العفَا والسّنَا[٧٦]. وذكر في موضعٍ آخرَ أنّ الإمالة في حروف الهجاء ضربٌ منَ الاتّساع؛ لأنّها جوامد لا تتصرّف، فلمّا فارقت الحرفية وأشبهت الأسماء دخلها ضربٌ من القوة فأميلت[٧٧]. ولعلّ السبب في ذلك اختلافهم في الإمالة في القراءات القرآنيّة؛ إذ لا يترتّب عليها مسوّغ دلاليّ كبير؛ لذلك يقول سيبويه: (واعلمْ أنّه ليس كلّ من أمال الألفات وافق غيره منَ العرب ممّن يُميل، ولكنّهُ قد يخالف كلٌّ منَ الفريقين صاحبه، فينصب بعضٌ ما يميل صاحبه، ويميل بعضٌ ما ينصبُ صاحبُه)[٧٨]. إلّا أنّ الدراسات الصّوتيّة الحديثة تعلّل اللّجوء إلى الإمالة بأنّه نوعٌ منّ الاقتصاد في الجهد العضليّ وما يلجأ إليه الإنسان في ظواهره الاجتماعيّة منَ الميل إلى السّهولة، (ولا شكَّ أنّ الانتقال منَ الكسر إلى الفتح أو بالعكس يتطلّب مجهودًا عضليًا أكبر ممّا لو انسجمت أصوات اللّين بعضها مع بعض، بأن تصبحَ متشابهةً؛ لأنّ حركة الإمالة أقرب إلى الكسرة منها إلى الفتحة)[٧٩].

ومن ذلك ما ورد في قراءة قوله تعالى: (وَإذا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)[٨٠] بإمالة الهمزة، وقد أنكر ابن جنيّ الإمالة هنا وعدّ القراءة ظاهرة الإشكال؛ (وذلك أنّه لا داعيَ إلى إمالة فتحة هذه الفاء كما أميلت فتحة الرّاء الأولى منَ الضّرّر لكسرة الثانية، وكما أميلت فتحة النّون من قولهم: وإنّا إليه راجعون، لكسر الهمزة ونحو ذلك، فمن هنا أشكل أمر هذه الإمالة، إلّا أنّ هنا ضربًا منَ التعلّل صالحًا، وهو أنّه لك أن تقول: فاصطادوا فتميل

الألف بعد الطّاء إذ كانت منقلبةً عن ياء الصّيد)[٨١].ويفهم من كلامه هنا أنّ الإمالة تصحّ إذا كان ما بعد الألف ياءٌ أو كسرة، فأشكلت هنا لصعوبة الانتقال من الفتح إلى الكسر.

ومن شواذ الإمالة ما ذكره في قوله تعالى: (قَدْ سَأَلَهَا)[٨٢] قرئ بكسر السّين على الإمالة، وعلّل ذلك بقوله: (لأنّ الألف لا يكون إلّا مفتوحًا، ووجه الإمالة أنّه على لغة من قال: سِلتَ تسال، فهي في هذه اللّغة كخفتَ تخاف، فالإمالة إذًا إنّما جاءت لانكسار ما قبل اللّام سِلت، كمجيئها في خاف لمجئ الكسرة في خاء خِفت، ويدلّك على أنّ هذه اللّغة منَ الواو لا منَ الهمزة ما حدّثنا به أبو عليّ من قوله: هما يتساولان، وهذه دلالة على ما ذكرنا قاطعة)[٨٣]. والظاهر أنّ هذا ليس منَ الإمالة وإنّما هما لغتان سأل وسول، قال أبو حيّان: (وقرأ النخعيّ بكسر السّين من غير همز يعني بالكسر الإمالة وجعل الفعل من مادة سين وواو ولام لا من مادّة سين وهمزة ولام، وهما لغتان ذكرهما سيبويه، ومن كلام العرب: هما يتساولان بالواو)[٨٤]. وذكر ابن منظور أنّ سَلتُ أسالُ سُوالًا لغةٌ في سألتُ[٨٥].

٤- الإتباع أو المجاورة:

قد تتبع العرب السّابق للّاحق أوِ اللّاحق للسّابق في الحركات أو في الإعراب؛ وقد فُسِّرتْ به بعض القراءات القرآنيّة، فمن ذلك ما علّل به ابنُ جنيّ قراءة قوله تعالى: (أنبِئْهِم)[٨٦] بكسر الهاء إتباعًا لكسرة الباء، فكأنّهما متجاوران ؛ لأنّ السّاكن ليس حاجزًا حصينًا عندهم، فكأنّه لا همزة أصلًا، وكأنّه قال: أنْبِهِم[٨٧].

وقد تتبع الحركة حركةً أخرى مراعاةً لحركة إعراب الأخيرة، قال ابن جنيّ في اتباع الحركات في المرء: (ومنهم من يضمّ الميم في الرّفع ويفتحها في النصب، ويكسرها في الجرّ فيقول: هذا المُرْء، ورأيت المَرْء، ومررت بالمِرْءِ، وسبب صنعة هذه اللّغة أنّه قد ألفَ الإتباع في هذا الاسم في نحو قولك: هذا امْرُؤٌ، ورأيت امْرَأً ومررت بامْرِئٍ، فيتبع حركة الرّاء حركة الهمزة، فلمّا أن تحرّكتِ الميم وسكّنتِ الرّاء لم يمكن الإتباع في السّاكن فنُقلَ الإتباع منَ الرّاء إلى الميم؛ لأنّها متحرّكة فجرى على الميم لمجاورتها الرّاء ما كان يجري على الرّاء، كما يقول ناسٌ: هذا بكُرُ، ومررت ببكِرِ؛ لما جفا عليهم اجتماع السّاكنين في الوقف وشحّوا على حركة الإعراب أن يستهلكها الوقوف عليها نقلوها إلى الكاف)[٨٨].

ومنه ما علّل به قراءة قوله تعالى: (بِقُرُبَانٍ تَأكُلُهُ النّارُ)[٨٩] بضمّ الرّاء إتباعًا لضمّة القاف، والأصل قرْبان بالسّكون؛ فليس في الكلام فُعُلان، ومثله السُّلُطان، فضمة اللّام إتباعٌ لضمّة السّين، ومنه القُرُفصاء إنّما هي القُرفُصاء، وقولهم: مُنُتُن بضمّ التّاء إتباعًا لضمّة الميم[٩٠].

ومن غريب ذلك أنّ الإتباع قد يكون للسّابق واللاحق كما فسّر ابن جنيّ قراءة قوله تعالى: (بِألفٍ منَ الملائكةِ مُرُدِفِينَ)[٩١] قرئ بكسر الرّاء إتباعًا لكسرة الدال بعدها، وبضمّ الرّاء إتباعًا لضمّة الميم قبلها[٩٢].

ومن ذلك قراءة قوله تعالى: (رُطَبًا جِنِيًا)[٩٣] بكسر الجيم إتباعًا لكسرة النون بعدها، وإن لم تكن النون من حروف الحلق، (وذلك لتفاوتهما، فالنون متعالية كما أنّهنّ سوافل فكلٌّ في شِقِّه مضاهٍ لصاحبه، ألا ترى أنّ أبا العباس قال في همزة صحراء وبطحاء ونحوهما: صحراوان وبطحاوان وصحراوات وبطحاوات؟ شبّهتِ الهمزة بالواو؛ لأنّ كلّ واحدةٍ منهما طارفةٌ في جهتها، فجعل تناهيهما في البعد طريقًا إلى تلاقيهما في الحكم. وبعد

فالعرب تُجري الشيء مُجرى نقيضه كما تُجريه مجرى نظيره، ألا تراها قالت: طويل كما قالت: قصير، وشبعان كجوعان وكرُم كلؤم وعَلِمَ كجهِلَ؟)[٩٤]. والظاهر أنّه اشترط في الإتباع الحروف الحلقيّة وعلّل وقوعه في غيرها وهو تكلّف كما يبدو فالذي يعنى بالإتباع هو الحركة وليس الحرف أيًّا كان مخرجه وصفتُه.

٥- القلب:

إنّما يلجأ العرب إلى قلب الصّوت إلى آخرَ كما يُبدلون بعضها من بعض طلبًا للخفة واستثقالًا لبعض الأصوات، يقول سيبويه في قلب الواو ياءً في (الميزان) ورجوعها في التحقير (مُوَيزِن): (إنّما أبدلوا الياءَ لاستثقالهم هذه الواو بعد الكسرة فلمَّا ذهب ما يستثقلون رُدَّ الحرف إلى أصله) [٩٥]. ويقول في قلب الواو همزةً في (قائل): (وإنّما قلبوا كراهية الواو والياء، كما همزوا كراهية الواو والياء)[٩٦]. وقد علّل ابن جنيّ القلب كذلك بطلب الخفة، (فمتى وجدوا طريقًا أو شبهةً في الإقامة عليها، والتعلّل بخفتّها وسهولتها سلكوها واهتبلوها، وليس غرضهم وإن كان قلبُها مسبَبًا عنِ الكسرة أن يتناهوا في إعلامنا ذلك بأن يعيدوها واوًا مع زوالها، وإنّما غالب الأمر ومجموع الغرض القلب لها يُعقب منَ الاسترواح إلى انقلابها، فكأنّهم قنّعوا أنفسهم بتصوّر القلب في الواحد لمّا انتقلوا عنه إلى الجمع؛ ملاحظة لأحواله، ومحافظةً على أحكامه، واسترواحًا إلى خفّة المقلوب إليه، ودلالةً على تمكّن القلب في الواحد حتى ألحقوه بما أصله الياء)[٩٧]. كما علّل الظّواهر الصّوتيّة في القراءات القرآنيّة على هذا الأساس، فمن ذلك:

قلب الواو همزةً:

إذا ضُمَّت الواو قُلِبت همزةً، وبهذا فسّر قراءة قوله تعالى: (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا)[٩٨] قرئ: أُثُنَنا، وأصلهُ وُثُنٌ جمع وَثَنٍ، كما قالوا: وُجُه وأُجُوه، ووُعِد وأُعِدَ، وأسد وأُسُد، ونظيره قوله تعالى: (وَإِذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ)[٩٩] وهذا بابُ واسعٌ[١٠٠].

قلب الواو ياءً:

وقد علّل ابن جنيّ هذا القلب بكراهة الواو لثقلها و خفة الياء، قال: (فأمّا قولهم في يوجل ويوحل ونحوهما: ييجل وييحل، بكسر الياء فإنما احتُمل ذلك هناك من قبل أنهّم أرادوا قلب الواو ياءً هربًا من ثقل الواو؛ لأنّ الياء على كلّ حالٍ أخفُّ منَ الواو)[١٠١]. ويلحظ هنا أنّ ابن جنيّ كثيرًا ما يستطرد في ذكر التعليلات الصّوتيّة، وإن لم يكن لها نظير في القراءات القرآنيّة رغبةً منه في تفسير ما يرد من ذلك في لغة العرب.

قلب الياء ألفًا:

كثيرًا ما يعلّل ابن جنيّ القراءات القرآنيّة بأنّها جاءت على لغة من لغات العرب، كما في قلب الياء ألفًا، فهي كما يقول لغة عُقَيل، فيقولون في أعطيتُك: أعطاتك، وبهذا علّل قراءة قوله تعالى: (وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ) [١٠٢] قرئ (أدْرَأْتُكُم) على الرّغم من إنكاره هذه القراءة، قال: (هذه قراءةٌ قديمة التّناكر لها والتّعجب منها ولعمري إنها في بادئ أمرها على ذلك، غير أنّ لها وجهًا وإن كانت فيه صنعةٌ وإطالة، وطريقه أن يكون أراد ولا أدريتكم به، ثمّ قلب الياء لانفتاح ما قبلها -وإن كانت ساكنةً- ألفًا، كقولهم في: ييئِس: ياءس، وفي ييبس يابس، وكقولهم: ضرب عليهم ساية، وإنّما يريد سيّة...فقُلبت الواو وأدغمت في الياء ... وقالوا في الإضافة إلى الحيرة: حاريّ، وإلى

طَيّ: طائيّ...فكذلك أيضًا قُلبت ياء أدريتُكم أَلِفًا فصارت أدرأتكم)[١٠٣]. وتعليله هنا يبدو عليه التكلف لما قرره من أنّ القراءة مبتذلة ومنكرة، ولكّنه كما هو شأنه في تعليل الظواهر الصّوتيّة يحاول جاهدًا إيجاد مبرّرات مقبولة وقريبة من الواقع اللّغويّ.

قلب الألف همزةً:

ذكر ابن جنيّ أنَّ ذلك يأتي في صيغة (فعّالّت) في قراءة قوله تعالى: (وَازَّيَّنَتْ)[١٠٤] قرئ: ازْيَأنَّتْ، والأصل: ازْيَانَّتْ بالألف؛ فكره التقاء سكنين هما الألف والنون الأولى فحرّك الألف فقُلبتْ همزةً[١٠٥].

قلب الألف ياءً:

عدّ ابن جنيّ هذا القلب منَ اللّغات الفاشية عند العرب، وعلّل بها قراءة قوله تعالى: (يَا بُشْرَى)[١٠٦] بقلب الألف ياءً (بُشْرَيَّ)، قال أبو عليّ الفارسيّ: (والقول في ذلك أنَّ ما يُضاف إلى الياء يُحرّك بالكسر إذا كان الحرف صحيحًا نحو: غلامِي وداري، فلمّا لم يحتملِ الألف الكسرة قُرِّبت منَ الياء بقلبها إليها كما كان الحرف يكون مكسورًا والألف قريبة منَ الياء، فكذلك أُبدلَ كلُّ واحدٍ منهما منَ الآخر في حاري وضاري)[١٠٧].

وقد نسب ابن جنيّ هذه اللّغة إلى هذيل فهم يقلبون ألف المقصور ياءً إذا أضيفت إلى ياء المتكلّم[١٠٨]. وفسّر بها قراءة قوله تعالى: (فَمَنْ تَبِعَ هَدايَ)[١٠٩] ، (هُدَيَّ) بقلب الألف ياءً ؛ ومن قول الهذليّ[١١٠]:

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ　　　فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

أراد هَوَيَ فقلب. وعلّل أبو حيّان ذلك بأنّهم أرادوا أن يكسروا ما قبل الياء فلم يستطيعوا لأنّه ألف لا يقبل الحركة فقلبوه ياءً[١١١].

قلب الهمزة ياءً:

عدّ ابن جنيّ الهمزةَ في هذا القلب أصلًا والياء بدل منها، وذلك في تعليل قراءة قوله تعالى: (فِي يَتَامَى النِّساء)[١١٢] بقلب التاء ياءً وهو لا يجوز عنده؛ إنّما أراد أيامى فأبدل الهمزة ياءً وقلبت الهمزة ياءً كما قالوا: قطع الله أدْيَه فأرجع اللّام وأعاد العين إلى سكونها فصارت يديه ثمّ أبدل الياء همزةً فأصبحت أديه، ونظيره قولهم: باهلة بن أعصر، إنّما هو يعصر فقلبوا الياء همزةً[١١٣].

٦- التقاء السّاكنين:

إذا التقى ساكنانِ أجاز اللّغويّون تحريك الأوّل بالحركات الثلاث، الكسرة والضمة والفتحة، والأولى عندهم أن تحرّك بحركة مناسبة للصّوت السّاكن، فإذا كان واوًا حرّك بالضمّ، وإذا كان ألفًا حرّك بالفتح وإذا كان ياءً حرّك بالكسر، ولذلك علّل ابن جنيّ قراءة قوله تعالى: (أُولَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى)[١١٤] بأنّ فيها ثلاث لغات: الضمّ والكسر والفتح، (والضمّ أفشى ثمّ الكسر ثمّ الفتح، وإنما كان الضمّ أقوى لأنّها واو جمع، فأرادوا الفرق بينها وبين واو أو ولو؛ لأنّ تلك مكسورة..وأمّا الفتح فأقلّها، والعذر فيه خفّة الفتحة مع ثقل الواو، وأيضًا فإنّ الغرض إنما هو التبلغ بالحركة لاضطرار السّاكنين إليها، فإذا وقعت من أي أجناسها كانت أقنعت في ذلك)[١١٥]. فالتخلّص منّ السّاكنين يتحقّق بأي حركة كانت شريطة أن تكون من جنس الصّوت السّاكن وألّا تلتبس مع غيرها من الأصوات.

ومنه ما علّل به ضمّ الميم منَ (قُم) لالتقاء السّاكنين في قراءة قوله تعالى: (قُمِ اللَّيْلَ)[116] فإنّما الغرضُ فيه الهروب مِن اجتماع السّاكنين فبأيّها حرّك تمّ الغرض، والكسر أكثر ولا يمتنع غيره، وتقول: قُلَ الحقَّ، فالكسر على أصل الباب، ومن ضمّ فعلى الإتباع، ومن فتح فجنح إلى الخفة [117]. فعلى هذا يكون الضمّ إتباعًا لضمة القاف قبلها، ولعلّ في تعليل قراءة الفتح بالجنوح إلى الخفة عدولًا عنِ الصّواب، فقد نظر إلى الفتحة وحدها، أمّا هنا فلا؛ لأنّ الخروج منَ الضمّ إلى الفتح فيه منَ الصّعوبة ما ليس في الخروج منَ الضمّ إلى الكسر، ولذلك كان الكسر في التقاء السّاكنين هو الشّائع والمطّرد في اللّغة.

ومنه ما قرئ به قوله تعالى: (وَلَوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهْوَاءَهُم)[118] بضمّ الواو من لو تشبيهًا لها بواو الجمع لسكونها وانفتاح ما قبلها، وإلّا فالأولى فيها الكسر، وقرئ كذلك بالفتح، وعلّة ذلك عنده أنّ الكسر هو الأصل في التقاء السّاكنين، والضمّ مراعاةً لواو الجمع، والفتح طلبًا للخفّة[119].

ومن غريب ذلك منَ القراءات ما يُخالَف فيه بين حركة الإعراب وحركة الهروب منَ التقاء السّاكنين، ففي قراءة قوله تعالى: (وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)[120] قُرئ بضمّ التاء منَ الملائكة إتباعًا لضمة الجيم ما سبب إشكالًا في الإعراب لكونه مجرورًا، وهو ما حدا ابن جنّي إلى أن يصف هذه القراءة بالضّعف، قال: (هذا ضعيفٌ عندنا جدًّا، وذلك أنّ الملائكة في موضع جرٍّ فالتاء إذًا مكسورة، ويجب أن تسقطَ ضمة الهمزة من اسجدوا لسقوط الهمزة أصلًا إذا كانت وصلًا، وهذا إنّما يجوز ونحوه إذا كان ما قبل الهمزة حرفًا ساكنًا صحيحًا نحو قوله عزّ وجلّ: (وقَالَتِ اخْرُجْ)[121] .. فضمّ لالتقاء السّاكنين لتخرج من ضمة إلى ضمّة.. فأمّا ما قبل همزته هذه متحرّك ولا سيّما حركة إعراب فلا وجه لأن تحذفَ حركته ويحرّك بالضمّ..لأنّ حركة الإعراب لا تستهلك لحركة الإتباع إلّا على لغيّة ضعيفة)[122]. فوجه الضّعف في القراءة عند ابن جنّي هنا هو مخالفة الإعراب ، ولا مبرّرَ لضمّ التاء للإتباع فلا التقاء للسّاكنين فيها.

٧- تقلّب الأصل الواحد:

ذكر ابن جنّيّ هذا الباب في كتابه (الخصائص) وسمّاه (الاشتقاق الأكبر) أرجع فيه كثيرًا من مفردات اللّغة إلى هذا النحو [123]. وقد نقل منه في المحتسب شيئًا ليس بالقليل، وهي تعود عنده إلى موضعٍ واحد وغرض واحد، فمن ذلك مادّة (ح ج ر) تلتقي معانيها كلّها في الشدّة والضيق والاجتماع، فالحجر وانحجر واستحجر والحجرة تعود إلى التماسك في الضّيق، والحرج الضِيّق، والجحر لضيقه، والجرح لمخالطة اللّحم، ورجح الميزان لميلانه إلى الأرض فقرب منها وضاقت المسافة بينهما[124]. وعلّل ذلك بتقارب الألفاظ من بعضها وتقارب الأصوات كذلك ، فالعرب تقارب بين الألفاظ ومعانيها وهي أدلّةٌ عليها فقالوا نحت ونحط في بكائه، كأنّ ضغط الصّوت يحتّ النّفس، وكذلك: ع ص ر، وع س ر ، وع ز ر، فالجامع بينهما الشّدة، شدّة المعصور، وشّدة الخلق، وشدّة الضّرب، ومنه: ج ب ر، ج ب ل، الجامع لها اجتماع الأجزاء، من نحو: جبرت العظم، إذا وصلت بين أجزائه، والجبل لاجتماع أجزائه، والجبن لتراجع الإنسان واجتماعه[125].

وبهذا فسّر ابن جنّيّ بعض القراءات القرآنيّة التي وردت على هذا النحو من مثل قراءة قوله تعالى: (عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى)[126] (جَنَّهُ) بالهاء، قال: (والمعنى الجامع لتصريف ج ن ن أين ما وقعت إنّما هو الاستخفاء والسّتر،

منه الجنّ، والجِنّة والجانّ، والجِنان لاستتار الجِنِ، ومنه المِجَنُّ للتّرس لستره، ومنه الجنين لاستتاره في الرّحم، ومنه الجنّة؛ لأنّها لا تكون جنّةً حتّى يكون فيها الشّجر، وذلك سترٌ لها، والجنان: روح القلب لاستتار ذلك، والجنن: القبر)[١٢٧].

ومن ذلك ما فسّر به الجدل في قراءة قوله تعالى: (فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا)[١٢٨] (جَدَلَنَا) بغير ألف، لأنه بمعنى الجدال والمجادلة، وأصله القوّة، فالجادل: القوي، والجديلة التّصميم وعدم اللّين، والأجدل الصّقر لشدّةِ خلْقِه[١٢٩]. ثمّ استطرد ابن جنيّ في ذلك فقال: (ونحوٌ منه لفظًا قولُهم: ظبيٌ شادنٌ: أي: قد قوي واشتدّ، والشّين أُخت اللّام، ونحوٌ منه قولهم: عطوتُ الشيء: إذا تناولته، وقالوا: أتيتُ عليه : إذا ملكته واشتملت عليه، والعين أُخت الهمزة، والطاء أخت التّاء والواو أخت الياء)[١٣٠]. فمرجع ذلك كلّه عند ابن جنيّ إلى تقارب الأصوات فتؤدّي معنى واحدًا مهما كان ترتيبها في الكلام.

٨- مناسبة الأصوات:

أفرد ابنُ جنيّ في كتابه (الخصائص) أبوابًا لمناسبة الأصوات للمعاني التي تدلّ عليها، فتتقارب معانيها لتقارب ألفاظها، من ذلك ما سمّاه بـ (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) و (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) وقد نسب هذا إلى الخليل وسيبويه، قال: (اعلم أنّ هذا موضعٌ شريف لطيفٌ، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقّته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحّته، قال الخليل: كأنّهم توهّموا في صوت الجندب استطالةً ومدًّا فقالوا صرَّ، وتوهّموا في صوت البازيّ تقطيعًا فقالوا: صَرصَرَ، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنّها تأتي للاضطراب والحركة؛ نحو النّقَزان، والغلَيان والغَثَيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال)[١٣١] ، وكذلك فعل في كتابه المحتسب، فأشار في توجيهه لبعض القراءات القرآنيّة إلى هذا المعنى، قال في قراءة قوله تعالى: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً)[١٣٢] بإبدال الضّاد صادًا فيهما معلّلًا هذه القراءة: (القبضُ بالضَّاد معجمة باليد كلّها، وبالصّادِ غير معجمة بأطراف الأصابع، وهذا ممّا قدّمتُ إليك في نحوه تقارب الألفاظ لتقارب المعاني، وذلك أنَّ الضّاد لتفشّيها واستطالةِ مخرجها ما جُعِلتْ عبارة عنِ الأكثر، والصَّاد لصفائها وانحصار مخرجها وضيق محالّها ما جُعلتْ عبارة عن الأقلِّ، ولعلّنا لو جمعنا من هذا الضَّرب ما مرّ بنا منه لكان أكثر من ألف موضع، هذا مع أنّنا لا نتطلّبه ولا نتقرّى مواضِعه فكيف لو قصدنا وانتحينا وجهه وحراه؟)[١٣٣]. وهذا هو ديدن ابن جنيّ في تعليل مثل هذه الظواهر الصّوتية المتعلقة بالقراءات القرآنيّة.

ومن ذلك ما أورده في الفرق بين النّضح والنضخ معلّلًا ذلك باختيار العرب ما يناسب معاني تلك الحروف، (وقالوا: النضح بالحاء غير معجمة للماءِ السَّخيف يخفُّ أثرُه، وقالوا النضخ بالخاءِ لما يقوى أثرُه فيبلَّ الثوبَ ونحوه بلَّا ظاهرًا وذلك لأنَّ الخاءَ أوفى صوتًا منَ الحاءِ، ألَا ترى إلى غِلظِ الخاءِ ورقَّةِ الحاءِ؟)[١٣٤].

وقد يغالي ابن جنيّ في ذلك كثيرًا ويذهب إلى أبعدِ من ذلك، فيجعل الحركات دالةً على المعاني ناسبًا ذلك إلى اختيار العرب، كما نلاحظ ذلك في تعليله قراءةَ قوله تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ)[١٣٥] بكسر الذّال، (فالذِلُّ في الدّابة ضدُّ الصّعوبة، والذّلُ للإنسانِ وهو ضدُّ العزِّ، وكأنّهم اختاروا للفصل بينهما الضّمّة للإنسان والكسرة للدّابة؛ لأنَّ ما يلحقُ الإنسان أكبرُ قدرًا ممّا يلحقُ الدّابة، واختاروا الضّمّة لقوّتها للإنسان، والكسرة

لضعفها للدّابة، ولا تستنكر مثلَ هذا ولا تنبُ، فإنّه من عرفَ أنسَ، ومن جهل استوحشَ)[١٣٦]. وهذا كما قلنا مبالغة منه في تعليل الظّواهر الصّوتيّة وتحميل اللّغة ما لا تحتملُه.

ومنه كذلك ما ألمح إليه من تمييز العرب بين المصادر لاختلاف المعاني الدّالة عليها، كاختيارهم الغلوّ في القول والغلاء في الأسعار، وذلك يرجع عنده إلى دلالة الأصوات والحركات، معلّلًا ذلك بأنَّ لفظ غلُوُّ على (فُعُول) بالضمِّ أقوى من الغلاءِ على (فَعَال) لمكان الواوين والضَّمتين، مع ضعف الألف والفتحتين، فصار الغلوّ في القول أقوى وأعلى وأعنى من الغلاء في الأسعار، مستدلّا بقوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا أنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)[١٣٧]، أمّا غلاء السّعر فلا يدخل النارَ ولا يحرّم الجنّة، وقالوا: غلتِ القدرُ غليانًا بالياء لمّا صغر عندهم المعنى، فإنَّ الياء تنحطّ عنِ الواو والضمة إلى الياء والكسرة[١٣٨]. وقوله هنا أنّ غلاء الأسعار لا يدخل النّار ولا يحرّم الجنة فيه نظر ويستدعي التوقّف عنده، فهو وإن لم يرد فيه نصٌّ قرآنيّ إلّا انَّ وعيد القرآن للمطففين الذين يبخسون الميزان يستوجب بالضّرورة عدم رفع الأسعار لأنّهما يؤدّيان الضّرر نفسه بالعباد.

ومن ذلك تعليلُه للفرق بين الغشاوةِ والغشيان من استعمالهم الأول للعين والثاني للقلب، (وينبغي أن يعلمَ أنّ غشي يلتقي معناها مع غشو؛ وذلك أنَّ الغشاوةَ على العين كالغَشي على القلب، كلٌّ منها يركب صاحبه ويتجلّله، غير أنّهم خصُّوا ما على العين بالواو، وما على القلب بالياء؛ من حيث كانت الواو أقوى لفظًا منَ الياء، وما يبدو للنّاظر منَ الغشاوة على العين أبدى للحسّ ممّا يخامر القلب؛ لأنَّ ذلك غائبٌ عنِ العين ، وإنّما استدلّ عليه بشواهده لا بشاهده ومعاينه، ولهذا في اللّغة منَ النّظائرِ ما لو أُودعَ كتابًا لكبر حجمًا، وكثر وزنًا ومحصول الحال واسعٌ وكثير لكنّ المحصِّل له نَزرٌ قليلٌ)[١٣٩].

ويبدو بذلك منهج ابن جنيّ في تعليل مناسبة الأصوات للمعاني الدّالة عليها، وهو منهج بدأ القول به الخليل كما مرّ، ثمّ سار على نهجه تلميذه سيبويه ثمّ ابن جنيّ الذي أكثر منه وغالى فيه حتى عدّ الحركات كما رأينا تبعًا لذلك، ومآل الأمر عنده يرجع إلى قوّة الصوت أو الحركة وضعفهما، فالقويّ منَ المعاني يستعمل معه القوي منَ الأصوات والحركات، والضّعيف منَ المعاني يستعمل معه الضّعيف منَ الأصوات والحركات.

٩- الإشباع:

منَ الموضوعات التي أخذت حيّزًا منِ اهتمام ابن جنيّ موضوع الإشباع، وهو إطالة الفتحة فينشأ عنها ألف، وإطالة الضمّة فينشأ عنها واو، وإطالة الكسرة فينشأ عنها ياء، وقد شاع هذا في اللّغة العربيّة كما يرى ابن جنيّ نثرًا ونظمًا، وعلّل به القراءات القرآنيّة التي وردت على هذا الوجه كقراءة قوله تعالى: (سأُرِيكُم دَارَ الفَاسِقِينَ)[١٤٠] فقد أشبع ضمة الهمزة حتى نشأ عنها واو، قال: (وقد جاء من هذا الإشباع الذي تنشأ عنه الحروف شيءٌ صالحٌ نثرًا ونظمًا، فمن المنثور قولهم: بينا زيدٌ قائمٌ جاء عمرو، إنّما يراد بين أوقات زيدٌ قائمٌ جاء فلان، فأشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفًا.. وروى الفرّاء عن بعضهم أنّه سمعه يقول: أكلتُ لحما شاةٍ، وهو يريد لحم شاة، فأشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفًا.. ومنه المسموع عنهم في الصّياريف والدّراهيم... وزاد في احتمال الواو

في هذا الموضع أنّه موضع وعيد وإغلاظ فمُكِّنَ الصّوت فيه وزاد إشباعه واعتماده، فأُلحِقتِ الواو فيه لما ذكرنا)[١٤١]. فلا يؤتى به إلّا حيث يحتاج إليه السّياق ويطلبه المعنى وليس زيادةً في حشو الكلام.

وقد أورد ابن جنيّ أمثلةً على ما جاء منه في الشّعر، فمن ذلك قولُ عنترةَ[١٤٢]:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جِسْرَةٍ   زَيَّافَةٍ مِثْلِ الفَنِيقِ المُكْدَمِ

أراد ينبعُ، فأشبع فتحة الباء فأنشأ عنها ألفًا، وقال إبراهيم بن هرمةَ[١٤٣]:

وَأنّني حَيْثُمَا يَسْرِي الهَوَى بَصَرِي   مِنْ حَوْثُمَا سَلَكُوا أثْنِي فَأنْظَورُ

أراد فأنظر، فأشبع ضمّة الظاء فنشأ عنها واوٌ[١٤٤].

ومن ذلك ما ذكره في أحد الوجوه التي علّل بها قراءة قوله تعالى: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأسْمَائِهِمْ)[١٤٥]، فإنّه أجاز أن يكون أراد: أنْبِهِم، فأشبع الكسرة حتى صارت ياءً، فقال: أنْبِيهِم ، وعليه أيضًا قولُ قيس بن زهير العبسيّ[١٤٦]:

أَلَمْ يَأْتِكَ والأنباءُ تَنْمَى   بِمَا لاقَتْ لَبُونُ بَني زِيَادِ؟

فأشبع الكسرة حتى صارت ياءً، أي يأتيك[١٤٧].

١٠- التخفيف:

ونقصد به حذف الحركة واللّجوء إلى السّكون، وقد عزا سيبويه حذف الكسرة إلى استثقالهم إياها، ولم يستثقلوا الفتحة فيحذفوها، (ويقولون في فَخِذٍ: فَخْذٌ، وفي عَضُدٍ: عَضدٌ، ولا يقولون في جَمَل: جَمْلٌ ولا يخفّفون؛ لأنّ الفتح أخفُّ عليهم والألف، فمن ثَمّ لم تُحذفِ الألف إلّا أن يُضطرَّ شاعرٌ فيشبهها بالياء لأنّها أختها)[١٤٨]. وذكر ابن جنيّ أنّ التخفيف (عِلّتُهُ توالي الحركات مع الضّمّات، فيثقل ذلك عليهم فيُخَفِّفونَ بإسكان حركة الإعراب)[١٤٩] كما ورد في قراءة قوله تعالى: (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئْكُم)[١٥٠] بإسكان الهمزة، وقوله: (بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتِبُونَ)[١٥١] بإسكان اللام.

ومنه قراءة قوله تعالى: (وَنَذَرُهُم فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[١٥٢] بإسكان الرّاء، وقوله تعالى: (وَمَا يُشْعِرُكُم أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)[١٥٣] بإسكان الرّاء؛ (وكأنّ يشعرْكم أعذر من يذرْكم؛ لأنّ فيه خروجًا مِنَ كسر إلى ضمٍّ، وهو في يذرهم خروجٌ من فتح إلى ضمّ). وقد فصّل أبو عليّ الفارسيّ القول في ذلك فقال: (فأمّا حركة البناء فلا خلافَ في تجويز إسكانها في نحو ما ذكرنا من قول العرب والنحويين، وأمّا حركة الإعراب فمختلَفٌ في تجويز إسكانها، فمنَ الناس من ينكره فيقول إنّ إسكانها لا يجوز من حيثُ كان علمًا للإعراب)[١٥٤].

ومن ذلك تعليله الفرق بين لام كي ولام الأمر بأن سكّنوا الثانية ولم يسكّنوا الأولى؛ لذلك كان إسكانها في قراءة قوله تعالى: (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)[١٥٥] - بكسر اللّام فيهما- شاذًا(في الاستعمال على قوّته في القياس؛ وذلك لأنّ هذا الإسكان إنّما كثر عنهم في لام الأمر نحو قوله تعالى: (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ)[١٥٦]، وإنّما أُسكِنت تخفيفًا لثقل الكسرة فيها، وفرّقوا بينها وبين لام كي بأن لم يسكنوها، فكأنّهم إنّما اختاروا السّكون للام الأمر والتحريك

للام كي من حيث كانت لام كي نائبةً في أكثر الأمر عن أن،... فلمّا نابت عنها قوّوها بإقرار حركتها فيها؛ لأنّ الحرف المتحرّك أقوى منَ السّاكن، والأقوى أشبه بأن ينوبَ عن غيره منَ الأضعف)[١٥٧].

فتحصّل بذلك أنّ التخفيف بالسّكون له دواعٍ عدّة عند ابن جني، قد يكون للتخلص من توالي الحركات وثقل بعض الحركات، وتارةً يكون لغةً من لغات العرب، كما قد يكون تمييزًا لبعض الحروف عن بعض كالفرق بين لام الأمر ولام التعليل وغير ذلك.

وقد يُعلِّل ابن جنيّ ذلك بأنّه لغةٌ تميميّة كقراءة قوله تعالى: (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)[١٥٨]بإسكان الظّاء، وهي نظيرة قولهم: كُتْب في كُتُب، وكَلْمة في كَلِمة، وكَبْد في كَبِد، كَرْم في كَرُمَ[١٥٩]. ويمكن أن يُعلّل ذلك كذلك بتوالي الأمثال، والخروج من فتح إلى كسر ثمّ الرّجوع إلى الفتح كما في الآية وهو ممّا لا يستسيغه العرب.

١١- تحريك السّاكن:

وهو خلاف ما تقدّم منَ التخفيف بتسكين المتحرّك، وقد خالف ابن جنيّ فيه مذهب البصريّن الذين يرون أنّ هذا ونحوه ممّا فيه حرفٌ حلقيّ لا يُحرّك إلّا على أنّه لغةٌ فيه كالنَّهَر والنَّهْر، والشَّعْر والشَّعَر، والزّهرة والزّهَرة، أما البغداديّون فمذهبهم أنّه يُحرّك لكونه حرفًا حلقيًّا نحو: البحْر والبحَر والصّخْر والصّخَر، قال مؤيّدًا البغداديِّين: (وما أرى القول من بعدُ إلّا معهم، والحقَّ فيه إلّا في أيديهم، وذلك أنّني سمعتُ عامّة عُقَيل تقول ذاك ولا تقف فيه سائغًا غير مستكرهٍ، حتى لسمعتُ الشّجريّ يقول: أنا محَموم بفتح الحاء، وليس أحدٌ يدّعي أنّ الكلام مَفَعُولًا بفتح الفاء)[١٦٠].

وقد فسّر ابن جنيّ القراءات التي وردت على هذا بأنّه لغة على رأي البصريّين أو هو محرّك لأنه حرفٌ حلقيّ على رأي البغداديّن مرجّحًا الرأي الثاني في ذلك، قال في قراءة قوله تعالى: (فَإِنْ يَمْسَسْكُم قَرَحٌ)[١٦١] بفتح الرّاء،: (ولعمري إنّ هذا عند أصحابنا ليس أمرًا راجعًا إلى حرف الحلق، لكنّها لغاتٌ، وأنا أرى في هذا رأي البغداديّين في أنّ حرف الحلق يؤثّر هنا منَ الفتح أثرًا معتدًّا معتمدًا؛ فلقد رأيتُ كثيرًا من عقيل لا أحصيهم يُحرّك من ذلك ما لا يتحرّك أبدًا لولا حرف الحلق، وهو قول بعضهم: نَحَوه، يريد: نحوه، وهذا ما لا توقّف في أنّه أمرٌ راجعٌ إلى حرف الحلق؛ لأنَّ الكلمة بُنيت عليه البتة)[١٦٢]. وهو بذلك يتحوّل عن رأي أصحابه البصريين (فلا قرابةَ بيني وبين البصريّين لكنّها بيني وبين الحقّ والحمد لله)[١٦٣] ولم نجده يأخذ برأيهم كما ذهب إلى ذلك الدكتور النعيمي[١٦٤]، بل كان موقفه واضحًا في تأييد البغداديّين في ذلك.

ومن ذلك أيضًا ما ذكره في تعليل قراءة قوله تعالى: (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ)[١٦٥] بفتح الهمزة مختارًا رأي البغداديّين، ومعتذرًا للبصريين بأنّهم لا يقبلون منَ اللّغة إلّا ما تأكّد عندهم نقلًا، قال: (غير أنّ لأصحابنا ألّا يقبلوا منَ اللّغة إلّا ما رويَ عن فصيحٍ موثوقٍ بعربيّته، ولست أُثبت هذه الفصاحة المشروطة لمن سمعت منه هذه اللّفظة ، أعني نَحَوه)[١٦٦].

ولا يبعدُ بعد هذا أن يكون الرّأيان مقبولين، فيفسّر تحريك السّاكن على أنها من لغات العرب على رأي البصريّين، أو أنّه يحرّك لأنه حرفٌ حلقيّ على رأي البغداديّين، ولا تعارضَ بينهما ولا تنافيَ؛ فكثيرٌ منَ الظّواهر

تُعلّل تعليلين مختلفين ولا ضيْر في ذلكَ ما دام في إطار العرف اللّغويّ، فضلًا عن أنّ كثيرًا من اللّغات عِلِّلت تعليلًا لغويًّا ولم يُكتَفَ بكونها لغات.

الخاتمة:

وبعد فقد تبين من خلال البحث حرص ابن جنيّ في تعليل الظّواهر الصّوتيّة في القراءات القرآنيّة الشّاذة ودفاعه عنها والاستدلال لها بما ورد عن العرب من لهجات وأقوال وشواهد شعريّة وغيرها، مخطئًا في أحيان كثيرة ابن مجاهد لرفضه بعض هذه القراءات ومدلّلا على صحتها بوجه من الوجوه وإن كان ضعيفًا، بل قد يصل به الحال إلى ترجيح الشّاذ وإيثاره على قراءة الجماعة.

أمّا العلل التي ذكرها ابن جني في الاحتجاج للقراءات الشّاذة فتكاد تكون واحدة فعلة الإدغام تقارب الحروف فيما بينها في المخرج أوِ الصفة همسًا أو جهرًا، أو في الصّفير كما هو الحال في إدغام التّاء في الطّاء أوِ الصّاد في الطاء، وكما هو الحال في إبدال السّين صادًا أوِ الثّاء فاءً وهو ما يعبّر عنه ابن جني بالأخوّة، فالشّين أخت الجيم والطّاء أخت التّاء، وكذلك الحال في الإشباع؛ فإنّما يشبع الصّوت فينشأ عنه آخر لقربه منه ڤي المخرج، بل هو مخرجه نفسه. وقد تكون العلّة الصّوتيّة الهروب من الثّقل وطلب الخفّة كما في توالي الأمثال أو التسكين وغيرها.

ومنّ العلل التي ذكرها ابن جنيّ في القراءات القرآنيّة اللّهجات، وقد علل بها فتح عين الحرف الحلقي في نحو (يَغَدو) و (مَحَموم) وهو رأي البغداديّين مخالفًا في ذلك رأي البصريّين الذين يرون أنّها لغة من لغات العرب، ولا يرى البحث ضيرًا أو تعارضًا بين الرأيين ويمكن أن يكون كلاهما صحيحًا؛ فكثيرٌ من اللّهجات عِلِّلت تعليلًا صوتيّا ولم يُكتَفَ بكونها لغة، ومنها قلب الألف ياءً وهي لغة هُذيل.

الهوامش:

(١) الكشف عن وجوه القراءات السّبع:١٣٨/١
(٢) دراسات في القرآن وقراءاته:١٩
(٣) سورة البقرة:٢٠
(٤) المحتسب:٥٩/١
(٥) سورة النمل:١٨
(٦) المحتسب:١٣٧/٢
(٧) سورة البقرة:١٢٦
(٨) المحتسب: ١٠٦/١
(٩) سورة الأنفال:٩
(١٠) المحتسب: 2٧٣/١
(١١) سورة يونس:١٤
(١٢) المحتسب: ٣٠٩/١
(٤٣) سورة التوبة:٨
(٤٤)المحتسب:٢٨٣/١
(٤٥) المحتسب:٦٦/٢، والدراسات اللّهجيّة:١٤٥
(٤٦) تفسير البحر المحيط:٤١٥/٦
(٤٧) سورة البقرة:٦١
(٤٨) المحتسب:٨٨/١
(٤٩) معاني القرآن للفراء:٤٠/١
(٥٠) لسان العرب: (فوم)
(٥١) سورة لقمان:١٦
(٥٢) المحتسب:١٦٨/٢
(٥٣) سورة قاف:١٠
(٥٤) المحتسب:٢٨٣/٢، والدراسات اللّهجيّة:١٣٠

(١٣) سورة النساء:١٢٨
(١٤) المحتسب:٢٠١/١
(١٥) سورة الكهف:٢٢
(١٦)المحتسب:٢٦/٢
(١٧) المحتسب :٣٢٢/١
(١٨) الكتاب:٥٤٨/٣
(١٩) الأصوات اللّغويّة:٨٧
(٢٠) سورة البقرة:١٤٣
(٢١) المحتسب:١١٤/١
(٢٢) سورة البقرة:٢٥٥
(٢٣) المحتسب:١٣٠/١
(٢٤) سورة البقرة:٣٣
(٢٥) المحتسب:٦٦/١
(٢٦) سورة الحج:٦٥
(٢٧) المحتسب:٧٣/١
(٢٨) سورة البقرة:١٠٢
(٢٩) المحتسب:١٠١/١
(٣٠) سورة البقرة:٢٠٣
(٣١) سورة المدّثر:٣٥
(٣٢) المحتسب:١٢١/١، والدراسات اللّهجية :١٨٢
(٣٣) سورة البقرة:١٦٨
(٣٤) المحتسب:١١٧/١
(٣٥) سورة الحج:٥
(٣٦) المحتسب:٧٤/٢
(٣٧) سورة القصص:١٠
(٣٨) المحتسب:١٤٨/٢
(٣٩) سورة الأنفال:٥٧
(٤٠) المحتسب:٢٨٠/١
(٤١) تفسير البحر المحيط:٦٤٥/٤
(٤٢) الكشّاف:٤٢٤/١
(٥٥) السّبعة في القراءات:١٠٧
(٥٦) سرّ الصِّناعة:٢٢٢، وفي اللّهجات العربيّة:١١٢
(٥٧) المحتسب:٣٨٣/٢
(٥٨) لسان العرب: (سرط)
(٥٩) سورة الزمر:٥٦
(٦٠)المحتسب:٣٠١/٢
(٦١) معاني القرآن للفرّاء:٣٠١/٢
(٦٢) سورة هود:٧٢
(٦٣) المحتسب:٢١٣/٢
(٦٤) سورة يوسف:٣٥
(٦٥) سرّ الصّناعة:١٩١، المحتسب:٣٤٣/١
(٦٦) الأصوات اللّغويّة:٨٦
(٦٧) في اللّهجات العربيّة:٦٧
(٦٨) سورة الأعراف:١٩
(٦٩) سرّ الصّناعة:٢٠٩، المحتسب:٢٤٤/١
(٧٠) سورة يوسف:٧٦
(٧١) المحتسب٣٤٨/١
(٧٢) الكتاب:٣٣١/٤
(٧٣) سورة البقرة:٢٤٨
(٧٤) المحتسب:١٢٩/١، والدراسات اللّهجيّة:١٥٦
(٧٥) سورة النور:٢١
(٧٦) المحتسب:١٠٥/٢
(٧٧) المحتسب:٣٦/٢
(٧٨)الكتاب:١٢٥/٤
(٧٩) في اللّهجات العربيّة:٥٩
(٨٠) سورة المائدة:٢
(٨١) المحتسب:٢٠٥/١
(٨٢) سورة المائدة:٨٢
(٨٣) المحتسب:٢١٩/١
(٨٤) تفسير البحر المحيط:٤٦/٤

(٨٥) لسان العرب: (سول)
(٨٦) سورة البقرة:٨٣
(٨٧) المحتسب:٧٠/١
(٨٨)المحتسب:١٠٢/١
(٨٩) سورة آل عمران:١٨٣
(٩٠) المحتسب:١٧٨/١
(٩١) سورة الأنفال:٩
(٩٢) المحتسب:٢٧٣/١
(٩٣) سورة مريم:٢٥
(٩٤) المحتسب:٤١/٢
(٩٥) الكتاب: ٤٥٨/٣
(٩٦) المصدر السّابق:٤٦٦/٣
(٩٧) الخصائص:٧٤٠
(٩٨) سورة النساء:١١٧
(٩٩) سورة المرسلات:١١
(١٠٠) المحتسب:١٩٨/١
(١٠١) المحتسب:١٩٨/١
(١٠٢) سورة يونس:١٦
(١٠٣) المحتسب: ٣٠٩/١-٣١٠
(١٠٤) سورة يونس:٢٤
(١٠٥) المحتسب:٣١٢
(١٠٦) سورة يوسف:١٩
(١٠٧) الحجة للقرّاء السّبعة:٤٤١/١
(١٠٨) المحتسب:٧٦/١
(١٠٨) سورة البقرة:٣٨
(١١٠) شرح أشعار الهذليين:١٣
(١١١) تفسير البحر المحيط:٢٤٦/١
(١١٢) سورة النساء:١٢٧
(١١٣) المحتسب:٢٠٠/١
(١١٤) سورة البقرة:١٦
(١٢٩) المحتسب:٣٢١/١
(١٣٠) المحتسب:٣٢٢/١
(١٣١) الخصائص:٤٠٧
(١٣٢) سورة طه:٩٦
(١٣٣) المحتسب:٥٥/٢-٥٦
(١٣٤) المصدر السّابق:١٩/٢
(١٣٥) سورة الإسراء:٢٤
(١٣٦) المحتسب:١٨/٢
(١٣٧) سورة مريم:٩٠-٩١
(١٣٨) المحتسب:١٤٠/٢
(١٣٩) المحتسب:٢٠٤/٢-٢٠٥
(١٤٠) سورة الأعراف:١٤٥
(١٤١) المحتسب:٢٥٨/١-٢٥٩
(١٤٢) ديوان عنترة:٦١
(١٤٣) المحتسب:١٥٩/١
(١٤٤) المصدر السّابق:٢٥٩/١
(١٤٥) سورة البقرة:٣٣
(١٤٦) الكتاب:٣١٦/٣، والخصائص:٢٦٦
(١٤٧) المحتسب:٦٨/١
(١٤٨) الكتاب:١٨٨/٤
(١٤٩) المحتسب:١٠٩/١
(١٥٠) سورة البقرة:٥٤
(١٥١) سورة الزخرف:٨٠
(١٥٢) سورة الأنعام:١١٠
(١٥٣) سورة الأنعام:١٠٩
(١٥٤) الحجّة للقرّاء السّبعة:٣٠٠/١
(١٥٥) سورة الأنعام:١١٣
(١٥٦) سورة الحج:٢٩
(١٥٧) المحتسب:٢٢٧/١-٢٢٨
(١٥٨) سورة البقرة:٢٨٠

(١١٥) المحتسب:١/٥٤-٥٥
(١١٦) سورة المزمّل:٢
(١١٧) المحتسب:٢/٣٣٦
(١١٨) سورة المؤمنون:٧١
(١١٩) المحتسب:٢/٩٨
(١٢٠) سورة البقرة:٣٤
(١٢١) سورة يوسف:٣١
(١٢٢) المحتسب:١/٧١
(١٢٣) الخصائص:٣٩٥
(١٢٤) المحتسب:١/٢٣٢، والدراسات اللّهجيّة:٢٧٩
(١٢٥) المصدر السّابق:٢/٦
(١٢٦) سورة النجم:١٥
(١٢٧) المحتسب:٢/٢٩٤
(١٢٨) سورة هود:٣٢
(١٥٩) المحتسب:١/١٤٣
(١٦٠) المصدر السّابق:١/٨٤
(١٦١) سورة آل عمران:١٤٠
(١٦٢) المحتسب:١/١٦٧
(١٦٣) المصدر السّابق:١/١٦٧
(١٦٤) الدّراسات اللّهجيّة والصّوتيّة عند ابن جنيّ:٤١
(١٦٥) سورة الأنعام:١٤٣
(١٦٦) المحتسب:١/٢٣٤

المصادر:

- القرآن الكريم.
- الأصوات اللّغويّة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصريّة، ٢٠٠٧م.
- تفسير البحر المحيط، أبو حيّان ()، تحقيق: د. عبد الرزّاق المهديّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
- الحجّة للقرّاء السّبعة، أبو عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: كامل مصطفى، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط١،٢٠٠١م.
- الخصائص، تأليف أبي الفتح عثمان بن جنيّ (ت ٣٩٢)، تحقيق: محمّد عليّ النجار، عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- دراسات لغويّة في القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.
- الدراسات اللّهجيّة والصّوتيّة عند ابن جنيّ، د. حسان سعيد النعيميّ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرّشيد ، بغداد، ١٩٨٠م.
- ديوان عنترة، تحقيق: خليل شرف الدّين، دار ومكتبة الهلال، بيروت-لبنان، ١٩٩٧م.
- شرح أشعار الهذليّين، أبو سعيد السُّكَّريّ (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: خالد عبد الغنيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- في اللّهجات العربيّة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصريّة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

-الكتاب (كتاب سيبويه)، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٩م.

- كتاب السّبعة في القراءات، ابن مجاهد (ت٢٤٥هـ)، تحقيق: د. شوقيّ ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

- كتاب الكشف عن وجوه القراءات السّبع وعللها وحججها، مكّيّ بن أبي طالب القيسيّ (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محيي الدّين رمضان، مؤسسة الرّسالة، بيروت-لبنان، ط٤، ١٩٨٧م.

- الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشريّ (٥٣٨هـ)، تحقيق: د. عبد الرزّاق المهديّ، دار إحياء التراث، بيروت- لبنان، ط١.

- لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: أمين محمد ومحمد الصادق، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت-لبنان،ط١٠،٢٠١٠م.

- المحتسب في وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢)، تحقيق: علي النجدي، د. عبد الحليم النجّار، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبيّ، القاهرة، ٢٠٠٩م.

- معاني القرآن، أبو زكريّا الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار إحياء التراث، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.